فى الأقيسة. ويعتقد هيجل أن القياس ليس أداة مصطنعة لبيان حجج، بل إنه واقعى، لأنه النسق الفعلى للتفكير الذى يتألف منه الكون.

وتشمل الفكرة الشاملة الموضوعية عناصر جزئية توضع معًا بصورة آلية وكيميائية، غير أن الآلية والكيميائية تجدان، على الرغم من علاقتهما الواقعية فى العالم، معناهما العميق فى الغائية، لأن كل شىء له غرضه الغائى الذى يُفهم على ضوئه، كما رأى أرسطو من قبل. فالحقيقة الواقعية المحايثة فى بذرة البلوط تتجلى بوضوح فى شجرة البلوط، والتطور من بذرة البلوط إلى شجرة البلوط هو غائية محايثة تكشف عن المغزى الداخلى لبنى الآلية والكيميائية. ويتحقق مركب الفكرة الشاملة الذاتية (المنطق العادى الذى أعيد تفسيره من جديد بطريقة هيجلية)، والفكرة الذاتية الموضوعية (المغزى العينى للعلم) فى مقولة الفكرة، التى تشمل مثلث الحياة (العالم بوصفه وجودًا حيًا)، والمعرفة (العالم يصبح واعيًا بذاته)، والفكرة المطلقة (العالم يعى ذاته فى وحدته المنطقية التامة وكماله). وتضم مقولة الفكرة المطلقة داخلها كل المقولات السابقة بوضوح، ابتداء من المقولة الأكثر تجريدًا، أى الوجود. وتؤلف تلك المقولات مركبًا كاملًا يعى ذاته ويكون حرًا.

ويؤدى إصرار هيجل على أن الفكر والواقع متطابقان إلى تأكيده للدليل الأنطولوجى على وجود الله، الذى رفضه كانط، الذى ميزّ بين الفكر والواقع. وعند هيجل ليس هناك واقع سوى الفكر، ولذلك يعى الفكر نفسه فى المقولات العليا التى تعرف، بالتأكيد، وجودها الخاص من حيث إنه المطلق[٨]. ويعتقد الهيجليون أن هيجل محق فى ذلك، ومن الممكن رد الاعتبار للدليل الأنطولوجى. ويتفق معظم الفلاسفة من مدارس أخرى مع كانط فى رفض هذا الدليل. فهل الفكر والواقع متطابقان؟ هل الواقع نفسه نسق من الفكر يعرف ذاته من حيث إنه كذلك فى المطلق؟ تلك تساؤلات محل نزاع وخلاف.

٥ ـ فلسفة الطبيعة

فى مقابل المنطق، الذى يكون فيه المطلق فكرًا خالصًا، تقف الطبيعة التى يتخارج فيها الروح المطلق من حيث إنه العالم الخارجى. وهدف هيجل فى «فلسفة الطبيعة» هو أن يعرض للمفاهيم الكلية التى تكون أساسًا للطبيعة. وتختلف التصورات عن مقولات المنطق من حيث إنها ليست كلها موجودة بالضرورة فى كل شىء. فهناك كليات فى

الكائنات الحية، مثلًا، لا تظهر فى المادة اللاعضوية. وهيجل ليس من أنصار مذهب شمول النفس.

وتصورات الطبيعة الأدنى والأكثر تجريدًا هى مثلث المكان، والزمان، والحركة؛ التى تؤدى إلى مبادىء الآلية الأخرى. وتلك المبادىء موجودة، بالتأكيد، فى كل طبيعة. وفي مقابل الآلية هناك تصورات الفيزياء، ويكون علم الكائنات الحية أعلى من هذه التصورات من حيث إنه مركب فى حالة الكائنات الحية. فالكائن الحى يكون فى تركيبه آليًا وفيزيائيًا، غير أنه شىء أكثر من ذلك. ويظهر الوعى بدرجة أدنى فى الحيوانات. ويمتلك الإنسان وعيًا ذاتيًا، لأنه يستطيع أن يستدل، فهو يمتلك عقلًا أو روحًا، بالمعنى الهيجلى. ولذلك، يعود الروح المطلق، الذى يكون فى عالم خارج ذاته فى الطبيعة، إلى نفسه فى أفراد متناهين يشاركون فى فكره العقلى الخاص. ويؤدى ذلك بهيجل إلى الجزء الثالث من مذهبه، وأعنى فلسفة الروح.

وليس من الضرورى مناقشة فلسفة الطبيعة عند هيجل بالتفصيل. إذ يُسلّم معجبوه بأن هذه الفلسفة هى أضعف جزء من فلسفته. إن تدريبه واهتمامه يكمنان فى مجالات مثل المنطق، والميتافيزيقا، والأدب، واللاهوت، والفن، والتاريخ البشرى. وقد كانت لديه معرفة علمية ضئيلة أو استعداد طبيعى قليل. إن الإنسان لا يستطيع أن يتفوق فى كل شىء. ومع ذلك، فثمة ملاحظتان قد نسوقهما قبل أن نترك ذلك الجزء من فلسفته.

لقد استبق هيجل مذهب التطور إلى حد أنه عزا إلى الطبيعة عملية منطقية من الصور الأدنى إلى الصور الأعلى؛ لأن المادة اللاعضوية، والنباتات، والحيوانات، والإنسان، تتبع العينية المتزايدة، والزمان والمكان. ويبدو، بالتأكيد، أن هذا التتابع المنطقى يفترض تطورًا مناظرًا فى الزمان، خاصة كما حاول هيجل أن يجد توازيًا بين الخطوات المتتابعة فى فلسفته الخاصة بالروح، وأحداث فى التاريخ البشرى. ومع ذلك، يرفض هيجل بصورة جازمة التصور «السديمى» لأصل تنظيمات حيوانية أكثر تطورًا من الأدنى [٩]. لقد عاش قبل أن يظهر استحسان تفسير «دارون» و«لامارك» للتطور العضوى. وبالتالى، بينما تُرك «لهربرت سبنسر» أن يصبح أول فيلسوف حديث يعرف دلالة التطور البيولوجى، فقد ساعد مذهب هيجل الذى يرى أن ثمة نظامًا منطقيًا فى الطبيعة فى إعداد العقل الأوربى لفلسفات التطور فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

ولم يكن هيجل،شأن الفلاسفة المثاليين المطلقين الذين تأثروا به فى العصور المتأخرة، معاديًا للعلوم الطبيعية، ولم يرفض التفسير الآلى للطبيعة من حيث إنه تفسير صحيح داخل مجال البحث العلمى حيث وجد أنه تفسير مقنع. ومع ذلك، فالآلية تصور مجرد فى الطبيعة بقدر ما هو مجرد فى المنطق. أما الغائية فهى تصور أكثر عينية. فلكل كائن حى، مثلًا، بنيته الآلية، وهو يخضع لقوانين الفيزياء والكيمياء. ومع ذلك، لا تفى الأوصاف عن طريق تلك القوانين بالغرض. لأن علاقات الأعضاء المتعددة بعضها ببعض، داخل أى كائن حى، تؤلف كلًا واحدًا يكون أكثر من التفاعل الآلى المحض لأجزائه، على الأقل عندما نقوم بدراستها دراسة فلسفية. فحياته تحقق غرضه الداخلى الخاص. إن الطبيعة بأسرها تحكمها قوانين آلية، غير أنها تمتلك معنى أعمق مما يستطيع أن يكشفه السرد المحض لتلك القوانين. وذلك ما يقصده الفلاسفة من أصحاب المثالية المطلقة عندما يصرون على أن للعالم دلالة روحية.

٦ ـ فلسفة الروح

يعالج القسم الثالث من فلسفة هيجل، وأعنى به فلسفة الروح، تجارب البشرية الحضارية. يعالج موضوع المثلث الرئيسى أى «الروح الذاتى»، السيكولوچيا، أى عمليات الأفراد العقلية منظورًا إليها بذاتها بصورة مجردة، بمعزل عن المجتمع. ونقيض هذا الموضوع، هو «الروح الموضوعى»، الذى نجد فيه عقل الإنسان (روح الإنسان) يبلغ الحرية، والعينية، والموضوعية فى العلاقات الاجتماعية. ويصبح الإنسان، أخيرًا، فى مركب المثلث ـ أى فى «الروح المطلق» ـ واعيًا بذاته بصورة عينية وواعيًا أيضًا بالعالم المادى والاجتماعى الذى يعيش فيه، ويصبح من خلال الفن، والدين، والفلسفة، ممتنًا بأصله الإلهى ومصيره، من حيث إنهما تجل للفكرة المطلقة. وبينما يكون النظام الذى تظهر فيه التصورات المختلفة فى الجدل منطقيًا خالصًا، ـ تزداد عينيته بالتدريج ـ فإن هيجل يعتقد أن تتابع الأحداث البشرية تتبع هذا النظام إلى حد ما .

وتبدو سيكولوجيا هيجل الآن ـ بتقسيماتها الفرعية الغريبة إلى ما يطلق عليه «الأنثربولوچيا» و«الفينومنولوجيا» ـ قديمة العهد. ومع ذلك، فقد كانت استبصاراته موضع تقدير فى العصر الذى عاش فيه. فقد عرف، مثلًا، أن كل مثير واستجابة جزء من كل عضوى، ومن المستحيل التفكير فى النفس على أنها جوهر منفصل فى تأثير متبادل مع

العمليات الجسمية أو موازية لها، لكن ذلك الوعى (أو كما يقول البعض الآن، السلوك) هو تنظيم مؤلف (هو تكامل) لوظائف جسمية. ويشير هيجل بقدر من الدقة إلى النظام الذى يحتمل أن تكون العمليات الذهنية (أو أوجه السلوك) قد نشأت منه.

وينظر البعض إلى معالجة هيجل «للروح الموضوعى» على أنها أفضل جزء فى فلسفته. ويتكون المثلث الرئيسى هنا من الحق (Recht)، بمعنى الحق المطلق (الذى يُنظر فيه إلى الأفراد فى علاقاتهم الخارجية بعضهم ببعض، وحقوق بعضهم تجاه البعض الآخر)، ومن الأخلاق الشخصية (Moralitat) (التى فيها يحول الأفراد أفكارهم إلى الداخل، ويفحصون ضمائرهم)، ومن الأخلاق الاجتماعية (Sittlichkeit) (التى تتموضع فيها الحقوق الذاتية والضمير الداخلى فى مؤسسات اجتماعية مثل الأسرة والدولة).

ويعرّف هيجل المبدأ العام للحق المجرد بأنه «كن شخصًا واحترم الآخرين بوصفهم أشخاصًا». ويشبه هذا الرأى القاعدة الثانية من قواعد الأمر المطلق عند كانط. ولما كان الإنسان شخصًا، وواعيًا بذاته، وحرًا، ومزودًا بقدرات أخلاقية، ويختلف بذلك عن الحيوان، فإنه يكون حاملًا لحقوق ويكون لديه التزامات مناظرة نحو نفسه ونحو أقرانه.

ويتطور الحق فى مثلث الملكية والعقد، والخطأ (الضرر، والقانون الجنائى... إلخ)؛ فالإنسان بوصفه شخصًا له الحق فى الملكية، وذلك يمكنه من التعبير عن شخصيته،عن طريق إعطائه الوسيلة المادية التى يستطيع بواسطتها أن يحصل على الأمن لنفسه ولأسرته وأن يخطط للمستقبل، ويصبح، بالتالى، حرًا بطريقة جوهرية. ويتضمن الحق معرفة حقوق الأشخاص الآخرين فى ملكيتهم الخاصة. ومعالجة هيجل العامة للملكية معالجة فردية؛ بمعنى أن الإنسان يبلغ الشخصية عن طريق اكتساب الملكية وإدارتها بطريقة محمودة أخلاقيًا. ولا تفترض آراء هيجل، فى الوقت نفسه، إغفالًا للمظالم الاجتماعية التى تجعل من المستحيل الآن على معظم الأشخاص أن يمتلكوا ملكية خاصية عن طريق مجهوداتهم الخاصة. ولا يكون العلاج بناء على الأفكار الهيجلية، فيما يبدو، فى الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية، اللتين تلغيان الملكية الخاصة، وإنما يكون بالأحرى فى نظام اجتماعى تصبح فيه الملكية الخاصة أكثر عمومية ويتم حمايتها بصورة أفضل.

ويكون لشخصين يمتلكان ملكية الحق فى أن يرتبطا بعقود، التبادل والتجارة، ويستطيعان عن طريقها أن يحولا ملكيتهما لمنفعة متبادلة، ولابد أن يحترم كل منهما الآخر بوصفهما شخصين فى تلك المعاملات التجارية، ويفعلان بنية مخلصة. والفشل فى تحقيق

ذلك يؤدى إلى الخطأ، وقد يكون ذلك الخطأ غير متعمد أو غير مقصود، وفى هذه الحالة يكون المخطىء ملزمًا بتعويض أو برد الملكية، أو قد يكون نصبًا واحتيالاً، وفى هذه الحالة يتظاهر المخطىء بأنه يسلك سلوكًا يتفق مع الحق، غير أنه لا يفعل ذلك،، ويجب فى هذه الحالة أن ينال جزاء، أو قد يكون (الخطأ) جريمة، وفى هذه الحالة ينتهك المخطىء بصورة علنية حقوق الآخرين ويستحق العقوبة.

ولا ينظر هيجل إلى العقاب على أن ما يبرره أساسًا هو أنه ردع لجرائم المستقبل، ولا أنه جزاء يستهدف إصلاح المخطىء؛ لأن التأكيد على أى هدف من هذين الهدفين معناه الإخفاق فى احترام شخصية المجرم الخاصة، ومعاملته كما لو كان حيوانًا أو موجودًا فى منزله دنيا[١٠]. إن العقاب يجب أن يكون تعبيرًا عن إرادة اجتماعية أو عامة تتجسد فى الدولة، وليس تعبيرًا عن أطراف تشعر بأنها مهضومة الحق. ويُفسِّر هيجل، باستمرار، على أنه يعنى أن العقوبات تعلم المجتمع المخطئ نفسه إذا كان ذلك ممكنًا، أن يتحقق من أن أى جريمة، من حيث إنها مسألة من مسائل العدالة، ترده عن الخطأ، عندما يعانى من نتائج سلوكه. لقد استحسن هيجل الحركات التى كانت موجودة فى عصره لإنسانيتها العظيمة فى معاملة المخطئين، وقصر عقوبة الإعدام على جرائم كبرى قليلة.

وينقلنا النظر فى الفعل الخطأ، وبصفة خاصة الجريمة، من الحق المجرد، الذى يهتم بأشياء خارجية مثل الملكية، إلى مسئولية أخلاقية وإلى العمليات الذهنية الداخلية للفاعل أعنى الانتقال إلى دراسة الأخلاق الفردية Morality التى تتميز عن الحق المجرد أو القانون والتى تكون نقيض الموضوع بالنسبة له وإلى الغرض الذاتى، القصد (النية) intention، وإلى موقف الضمير عند شخص ما، الذى يميز بين الخير والشر. والشخص مسئول أخلاقيًا عن أغراضه (أو نواياه)، التى تتضمن كل النتائج التى ينبغى أن يكون قادرًا على أن يتوقعها قبل أن يسلك سلوكًا معينًا، ولا يكون مسئولًا إلا عن تلك الأغراض فقط. ويكون القصد (النية) من النتائج المتوقعة والمرادة، تلك التى تكون جزءًا جوهريًا من الفعل. وقد يتضمن القصد سعادة Well-being الفاعل وسعادة الآخرين. ويعتقد هيجل أنه من الصواب بالنسبة للإنسان أن يحتوى قصده على خيرات أخرى بجانب الأداء المحض للواجب، شريطة أن لا تتضمن شيئًا يخالف الواجب. والرجل العظيم الذى يؤدى خدمات هامة للعالم، ينبغى ألا يُلام لأن قصده يتضمن عَرَضًا، السلطة، أو المجد، أو الشهرة لنفسه. ولم يكن هيجل قاسيًا بالنسبة لإنسان يسرق رغيفًا من

الخبز عندما يكون الأمر ضروريًا لأن يفعل ذلك لكى يطيل حياته، التى تكون أكثر أهمية من الملكية. إنه يسوغ تخصيص بعض الأدوات، والملابس، والأمور الضرورية والأخرى للمدين المفلس على حساب دائنيه. ولا يمكن، من ناحية أخرى، أن يُعفى شخص ما من المسئولية عن ضرر كبير سببه للآخرين بسبب «مقاصده الطيبة» المزعومة، إذا فشل فى أن يضع فى اعتباره النتائج الشريرة التى تنتج من فعله المتهور. وعندما يتأمل شخص ما من الداخل أغراضه ومقاصده، يظهر ضميره، ويميز بين الخير والشر. والخير هو إرادة ما هو عقلى وما يعمل على نجاح الرفاهية العامة، أما الشر فهو إرادة ماهو ضار. إن الأخلاق، باستخدام هيجل للمفهوم، هى، بحق، أن يفعل الشخص وفقًا لما يمليه ضميره الخاص، ويؤكد هيجل من جديد نظرية الاستقلال الذاتى عند كانط. ومع ذلك، يشير هيجل إلى أن ضمير الإنسان قد يخطىء ولا يستطيع الناس أن يبلغوا الحرية والمعرفة العقلية بما هو خير وما هو شر بالفعل إلا فى مجتمع منظم تنظيمًا جيداً. وأخلاق المجتمع الحصيفة، التى تتجسد فى مؤسسات تكون نتاج حكمة العصور، يوثق بها أكثر من ضمير الشخص المتعصب (بالإضافة إلى ما نسميه «المعترض المخلص»).

ويظهر مركب الحق المطلق والأخلاق الذاتية فى أخلاق موضوعية أو اجتماعية. والمثلث الرئيسى داخل الأخلاق الاجتماعية هو الأسرة، والمجتمع المدنى، والدولة. ويرى هيجل فى الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأصلية والأساسية التى تتحقق فيها الحرية. ولا يفهم الزواج فهمًا كافيًا إذا نظرنا إليه على أنه مجرد علاقة جنسية، أو عقد مدنى، أو اتحاد ينتج من حب رومانسى. وهو يشمل كل ذلك، بالتأكيد، غير أنه فوق كل ذلك، ويجب أن يكون، اتحادًا «أخلاقيًا» يوافق فيه فردان بحرية على أن يصبحا شخصًا واحدًا؛ يتخلى كل واحد منهما عن المصالح الأنانية لكى يدخل فى حياة أكبر من حب متبادل، ومساعدة، وإرادة مشتركة، وأغراض مشتركة. إنه مؤسسة اجتماعية، ذات اهتمام عام بالمجتمع؛ ولذلك، لابدأن تحدد ظهوره مراسم مدنية، ولا يسمح بالطلاق الذى يكون نتيجة نزوة عارضة من أحد الشريكين أو من كليهما، بل يسمح به فقط نتيجة لأسباب خطيرة الشأن يحددها القانون. ويجب على الزوج باعتباره رب الأسرة أن يكسب المعاش، ويوفر لأفراد الأسرة حاجاتهم، ويعتبر ملكيته ملكيتهم المشتركة. ويدرك الزوج والزوجة فى أطفالهما التحقق الموضوعى لحبهما، الذى كان من قبل شعوراً ذاتيًا تجاه كل منهما للآخر. إنه ينبغى عليهما أن يربيا أطفالهما بحذر وفهم، ويمارسا الحزم عندما يكون الأطفال صغاراً فى

السن، ويحترما حقوقهم الكاملة من حيث إنهم أشخاص مستقلون عندما يصلون إلى سن النضج التام ويكونون على استعداد لأن يعولوا أنفسهم، ويكونوا أسرًا خاصة بهم. ويصر هيجل على أهمية الأسرة من حيث إنها مؤسسة أخلاقية فى مقابل شطحات الرومانسيين الذين كانوا يتعاطفون مع الارتباطات العارضة ومع الحب الحر غير المسئول.

ولكى يحافظ هيجل على تناسق الجدل، كان عليه أن يجد نقيض الموضوع للأسرة، الذى يستطيع أن يتآلف معها فى وحدة عليا هى الدولة. وهذا ما يطلق عليه اسم «المجتمع المدنى» (burgerliche Gesellschaft). أما الموضوع داخل المجتمع المدنى فهو نسق الحاجات system of wants، ذلك النسق الذى يتضمن ما نسميه بالنظام الاقتصادى، ويضم الطبقات الزراعية، والصناعية، والتجارية، والحاكمة. وينتمى الفرد إلى الطبقة التى يطمح إليها شريطة أن يكون مناسبًا لها؛ ولا يتحدد ذلك سلفًا بطريقة تعسفية عن طريق الميلاد (كما فى نظام الطبقات المغلقة فى الهند)، ولا يأمر به الحكام (كما هى الحال فى جمهورية أفلاطون). أما نقيض الموضوع فهو إدارة العدالة بين الأفراد والطبقات عن طريق قوانين تفسرها المحاكم بلغة مفهومة للمواطنين. أما المركب فهو يشمل رجال الشرطة الذين ينفذون أوامر المحاكم، والنقابات الإرادية التى يكون للأفراد الحرية فى تنظيمها لكى تدعم مصالحهم بطريقة تنسجم مع الرخاء العام.

وكان هيجل يحترم الدولة احترامًا كبيرًا من حيث إنها الفكرة الشاملة عن المثل الأعلى، ولأن الأخلاق تعالج المثل العليا، بمعنى ما ينبغى أن يكون وليس ما هو كائن، ولا ينبغى أن نلومه على ثنائه على الدولة بصورة لا تستحقها أى دولة قائمة بالفعل. فلقد عرف هيجل أن للدول القائمة بالفعل عيوبًا كثيرة، ومع ذلك كان متفائلًا حتى إنه كان يعتقد أنه حتى لو كان الأمر كذلك، فإنها شوهت مثلًا أعلى ليس غائبًا تمامًا، مثلما يكون الإنسان الدميم، والمجرم، والأعرج، والعاجز، بالرغم من ذلك أناسًا أحياء. ولا يصبح الفرد حرًا تمامًا، ويمتلك حقوقًا يمكن تحديدها على أساس عقلى والمحافظة عليها، إلا من حيث إنه مواطن فى الدولة. والدولة أكثر أهمية من الفرد. ومع ذلك لا يمكن الإدعاء بأن هيجل نقل نظريته العضوية فى الدولة إلى متطرفى المذهب الشمولى المعاصر. ويعلن هيجل أن الدولة الأكثر تطورًا، هى التى يكون دستورها ملكيًا، ويكون رئيسها فردًا واحدًا ينظم كل وظائفها. ومع ذلك، لا يكون الملك مستبدًا، لأنه يتصرف بناء على نصيحة وزرائه، ولا ينبغى عليه سوى أن يقول «نعم»، وبذلك يضع النقط على الحروف. ويبدو أن

هيجل كان فى ذهنه صورة ملك له وظائف تشبه إلى حد ما وظائف الملك الإنجليزى، الرأس البارز الذى تنفذ باسمه أعمال الحكومة.

ويلى الملك السلطة التنفيذية أو موظفو الدولة والسلطة التشريعية، ولا يؤمن هيجل بالنظرية الأمريكية فى الفصل الكامل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، ولكنه يفضل الممارسة البريطانية التى يكون بواسطتها للوزراء مقاعد فى البرلمان. ولا يحبذ حق التصويت العام؛ صحيح أن الحكومة تنفذ الإرادة العاقلة للأمة، لكن ذلك لا يمكن أن يتحقق عن طريق انتخاب شعبى تدلى فيه الجماهير الجاهلة بأصواتها. بل ينبغى أن تقود السلطة التنفيذية الرأى العام وتوجهه بدلًا من أن تخضع فتكون أداة سلبية لانفعالات شعبية طاغية فى لحظة ما. وعلى الرغم من أن هيجل لم يكن يريد بذلك معارضة التقدم، فإننا نستطيع أن نرى لماذا كانت آراؤه بوجه عام مقبولة بالنسبة للبيروقراطية الرجعية التى كانت مسيطرة على بروسيا بعد مؤتمر فينا، وكان يُخشى أنه يريد أن يكون تمامًا تحت رضا الحكومة. وهناك الكثير من آراء هيجل عن الدولة له قيمته، ويدين إلهام بعض من أعظم المفكرين البريطانيين فى الفلسفة السياسية لهيجل، كما توضح ذلك كتابات «توماس هل جرين» T. H. Green، و«برنارد بوزانكيت» B. Bosanquet. غير أن هيجل أصابهم بالإحباط فى معالجته للقانون الدولى. فلم يكن لديه أمل فى إمكان تأسيس سلطة دولية، أو ضمان سلام عالمى.

كل دولة ـ فى تفسير هيجل للتاريخ الكلى ـ تعبير عن فكرة تتجلى أثناء التطور فى شعب يسيطر ثم يفقد مكانته المرموقة بعد أن يؤدى رسالته. وتتجلى الفكرة المطلقة فى هذه السيطرة المتعاقبة للدول. إن «تاريخ العالم هو محكمة العالم». ويشير هيجل فى كتابه «فلسفة التاريخ» إلى ما يعتقد أنه مساهمة لكل شعب مهم فى التاريخ. وهذا الكتاب مثير بسبب الكم الهائل من المعلومات المفيدة والمعلومات المضللة التى جمعها هيجل معًا، وبينما يكون فكره موحيًا، بدرجة كبيرة، فإن الكتاب يميل بوجه عام إلى أن يجعل المؤرخين يشكون فى كفاءة الفيلسوف فى تفسير التاريخ تفسيرًا صحيحًا. ومع ذلك كثيرًا ما يُنصح المبتدئون فى دراسة فلسفة هيجل بقراءة هذا الكتاب، لأنه قراءة ممتعة، ويعرض المنهج الجدلى بوضوح، وهومليء بالأمثلة والشواهد.

لقد قمنا حتى الآن بإعادة عرض لتفسير هيجل لتقدم الفكرةالمطلقة: أولًا فى ذاتها من حيث إنها تتجلى فى مقولات المنطق، وثانيًا من حيث إنها تتخارج عن ذاتها فى الطبيعة

الفيزيائية، وثالثًا من حيث إنها تصبح واعية بذاتها فى ذاتها ولذاتها فى عمليات الروح الذاتى السيكولوجية، وتنكشف من حيث إنها روح موضوعية فى مؤسسات اجتماعية. وتبلغ ذروتها فى الروح المطلق، الذى نعى فيه الواقع بأسره فى وحدته العضوية وكماله. ويتم ذلك فى الفن عن طريق وسيط من صورة محسوسة من نوع ما، وفى الدين، نخبر وحدة البشرى مع الإلهى فى العبادة، أما فى الفلسفة، فينكشف المطلق فى تصورات التفكير الخالص. وثمة علاقة وثيقة للغاية بين تلك الإنجازات الثلاثة العليا للروح، التى يكتمل بها المذهب.

وتشع الحقيقة الواقعية (أى المطلق) فى الفن بوصفها جمالاً Beauty عن طريق وسيط محسوس، قد نتمثله مباشرة كما هى الحال فى تمثال، بناء، أو ألحان الموسيقى، أو فى خيال محسوس كما هى الحال فى الشعر. ولا يمكن أن نتعرف على الجمال فى طور أدنى من أطوار الطبيعة غير الحية (الجامدة) مثل كتلة من الحديد، وبصورة أقل فى نسق آلى مثل الشمس والكواكب. ويصبح الجمال أكثر وضوحًا فى النباتات، التى تكون فيها وحدة الأجزاء والكل غائية، ويصبح أكثر وضوحًا فى الحيوانات، ولا يزال أكثر وضوحًا فى الموجودات البشرية. ومع ذلك، فالإنسان يخلق صورًا من الجمال أكثر كفاية مما يجده قائمًا فى العالم حوله. إن الفن أسمى من الطبيعة. (وقد نعترض على هذا التأكيد، غير أن رؤية هيجل الفلسفية بأسرها تؤدى إلى تأكيدها).

ولما كان هدف الفن هو الكشف عن الدلالة الداخلية للواقع فى صور محسوسة، فإنه يكون باستمرار تفسيرًا أعلى وليس تقليدًا أعمى للطبيعة (فى معارضة أفلاطون فى محاورة «الجمهورية»). إن الفن ينقى الانفعالات، وله دلالة أخلاقية (ويتفق هيجل هنا مع أرسطو). ويجب ألا يكون هدف الفنان تعليميًا أو تهذيبًا أساسًا، وأن لا يهدف إلى شهرة شخصية ومكافآت مالية. بل ينبغى عليه أن يسعى إلى نقل فهم الحقيقة عن طريق صور محسوسة تكون لها فائدتها وقيمتها فى تقدير جمالى لذاته. ويوضح ذلك القيمة الفريدة للفن وتصوره النهائى إذا ما قورن بالدين والفلسفة(١١).

لكل عمل من الفن جانبان؛ مضمونه الروحى وتجسده المادى أو الصورة. يسود التجسيد المادى فى الفن الرمزى، بينما يسود المضمون الروحى فى الفن الرومانسى، ويكون هناك توازن تام بين التجسيد المادى والمضمون الروحى فى الفن الكلاسيكى.

لا يستطيع العقل البشرى أن يعبر تمامًا فى الفن الرمزى عن المضمون الروحى الذى

يحاول أن ينقله بواسطة التجسيد المادى، ولا يمكنه سوى أن يفترض معناه عن طريق رمز ما. وتوجد الأمثلة الفجة فى إبداعات الفن الهندى الذى يقدم مخلوقات هائلة ومشوهة تسعى، على سبيل المثال، إلى أن توحى بعظمة الآلهة، عن طريق جعل رؤسها، وأيديها، وأرجلها كثيرة. والفن المصرى أكثر تأثيراً فى رمزيته؛ فالمسلات تمثل أشعة الشمس، بينما يلفت أبو الهول الانتباه بطريقة مؤثرة إلى لغز الكون. ويصل الفن الرمزى إلى اضمحلاله فى الحكاية الخرافية، والشطحات، والحكايات القصيرة، وقصيدة الشعر الوصفية والتعليمية، التى لا تعبر أى منها تعبيراً صادقًا عن المضمون الروحى، بل تشير إليه فقط عن طريق الرموز.

وثمة توازن وانسجام بين المضمون والصورة فى الفن الكلاسيكى، الذى كان يعجب به هيجل إعجابًا كبيراً. فهنا ينظر إلى الفن فى أحسن حالاته على أنه فن. إن المضمون يكون عينيًا، وتكون الصورة كافية للتعبير عنه. فآلهة اليونان موجودات شخصية وفردية مثلنا، وكانت لدى النحات القدرة على أن يصورها فى جو من السعادة الهادئة والخالدة التى تتجسد فى صور مثالية تعبر عما كان مقصودًا تعبيراً كاملًا. ولم يكن الفن اليونانى، بالتأكيد، فنًا كلاسيكيًا تمامًا؛ لأن اليونان استخدموا الرمزية أحيانًا، وكثيراً ما كانوا رومانسيين فى شعرهم، وبصفة خاصة فى المسرحية. غير أن اليونان كانوا أكثر شهرة بإنجازاتهم فى الفن الكلاسيكى، الذى طوروه إلى أعلى كمال، بصفة خاصة فى النحت والآثار.

ويهيمن المضمون الروحى فى الفن الرومانسى، ولا تكفى صورة محسوسة للتعبير عنه تمامًا. ومن أمثلة هذا الفن الفروسية، بخصائصها الأساسية المتعلقة بالمجد، والحب، والولاء، والحب الرومانسى، واعترافه بالقيمة اللامتناهية لأشخاص آخرين. ولا توجد هذه الموضوعات فى الشعر الكلاسيكى الخالص، مثل شعر «هوميروس». ويسعى الفن الرومانسى إلى الكشف عن الروح، ليس فى الجلال الكلاسيكى الهادىء والسكون فحسب، وليس فى مغامرات الأبطال، بل فى صراعاته الداخلية، وآلامه، وانتصاراته القصوى. وآلام المسيح، ووفاته، وقيامته، وانتصارات الإيمان على المعاناة التى حققها القديسون والشهداء، هى من بين الموضوعات المفضلة للتصوير الرومانسى، والموسيقى، والشعر، وموضوعات العمارة القوطية أيضًا (التى ينظر إليها هيجل على أنها فن رومانسى). وطالما أنه لا يمكن لصورة محسوسة أن تنقل بصورة كافية حقائق روحية

عميقة، فإن الجدل ينتقل من الفن إلى نقيضه فى الدين. ولقد اهتم هيجل بالفنون الجميلة اهتمامًا كبيرًا، وكرس جهدًا كبيرًا لتقديم تفسير محكم لمغزاها الداخلى. وظل واحدًا من المفكرين البارزين فى تاريخ الاستاطيقا، ويعترف كثيرون ممن يميلون إلى رفض فلسفته فى الفن بأسرها، بأفكار ثاقبة وذات قيمة.

ويحتل الدين مكانة وسطًا بين الفن والفلسفة، فلم تعد الفكرة المطلقة متجلية فى صورة موضوع من موضوعات الحس، وإنْ كانت لا تزال لا تفهم مع ذلك فى صور عقلية خالصة. لأن مضمون الدين هو التمثل (Vorstellung)، الذى يكتسى فيه الفكر الخالص بتصوير من نوع ما. والفكرة الشائعة عن خلق الله للعالم هى ذلك التمثل. والحقيقة الفلسفية فى ذلك التمثل هى التحول من المنطق، أعنى الفكرة فى ذاتها، إلى الطبيعة، أعنى الفكرة فى تخارجها. ولم يرفض هيجل تمثل الدين من حيث إنه مجرد أوهام شعبية. فهو يرى فيها تجليات فعلية للمطلق، الذى يعبر عن الحقيقة بصورة كافية مثلما يستطيع العقل العادى أن يفهمها.

ويجد هيجل فى المسيحية، التى يطلق عليها اسم الديانة المطلقة، التمثل الأكثر كفاية للحقيقة الممكنة لدين ما. ويكون الله الأب هو المنطق؛ أى المقولات قبل أن تتخارج فى العالم؛ ويكون الله الأبن هو عالم الطبيعة؛ أما الروح القدس فيكون الواقع الذى يصبح واعيًا بذاته فى الروح، ويكون متمثلًا فى الكنيسة. وتظهر عقيدة التثليث فى صورة تمثل للحقيقة التى تذهب إلى أن المطلق يكون ثلاثة فى واحد؛ لأن المقولات المنطقية، والطبيعة، والروح تكون كلها معًا المطلق الواحد فى جانبه الثلاثى. ويشعر الإنسان عندما ينعزل عن المطلق بمواطن ضعفه ويصبح واعيًا بالخطيئة؛ ويجد عن طريق تجسد المسيح أن المطلق من حيث إنه الطبيعة (أى الأبن) أصبح إنسانًا، ويبلغ الوعى بالاتحاد بالله عن طريق العبادة. إن القيمةالعظيمة للدين المسيحى هى تمثلاتها التى تناظر الحقائق الأزلية للفلسفة (فلسفة هيجل). ولا ينبغى أن نشغل أنفسنا بالصحة التاريخية للمعجزات أو بأحداث أخرى يفترض أنها حدثت منذ ثمانية عشر قرنًا، فمهما كان ما قرره المؤرخون بشأن هذه الحقائق الأزلية فى نهاية الأمر، فإنها سوف تظل باقية ويحاول هيجل أن يبين أن المسيحية تمثل شعبى للحقائق النهائية فى فلسفته الخاصة، ومن الطبيعى أن يلجأ إليها القساوسة وآخرون ممن يرغبون فى أن يصبحوا هيجليين وأن يظلوا مع ذلك مسيحيين.

وقام هيجل بدراسة الأديان التاريخية الأخرى المتعددة بتعاطف، واعترف لكل منها بالفضل من حيث إنها تفسر طوراً من أطوار تقدم الجدل بصورة كبيرة أو صغيرة. ودرس أدب الدين المقارن الذى كان متاحًا آنذاك، وربما كان دقيقًا فى إشاراته إلى الديانات المختلفة بقدر ما كان مستطاعًا عندئذ. واهتم هيجل بالدين اهتمامًا كبيرًا، ووضعه فى مرتبة أعلى فى مذهبه من أى صورة أخرى من صور المعرفة باستثناء الفلسفة ذاتها. لقد اعتقد أنه يحتل مكانة جوهرية فى الحياة البشرية، وكان مقتنعًا بأن الإنسان يتحد عن طريقه بالإلهى.

والمركب النهائى فى مذهب هيجل هو الفلسفة، وعن طريقها يكتشف الإنسان المطلق فى كل مراحل الجدل. وعندما يفعل الإنسان ذلك، يصبح عاقلًا وواعيًا بذاته. ويُقدِّر مكانته فى كون عضوى وعقلى. ويصبح الكون بدوره واعيًا بذاته فى حياة الإنسان الثقافية. ويظل مذهب هيجل الفلسفة الأكثر شمولًا التى تم إنجازها فى العصور الحديثة.

٧ ـ خلفاء هيجل

دبت خلافات بعد وفاة هيجل مباشرة بين أتباعه بشأن ما إذا كان المطلق يمتلك وعيًا بالذات بمعزل عن تجليه فى الأرواح (العقول) البشرية أم لا، وما إذا كان الله يتجسد فى يسوع المسيح بأى معنى مختلف عن ذلك المعنى الذى يكون الله حاضرًا فيه عند جميع البشر أم لا، وعما إذا كان للناس خلود شخصى من حيث إنهم أفراد أم أن الروح المطلق هو وحده الخالد، وأسئلة أخرى على شاكلتها. وقد دبت هذه الخلافات بصفة خاصة فى مجال الدين. فقد دافع المحافظون ـ «اليمين الهيجلى» ـ عن أكثر هذه البدائل اعتدالًا وأصروا على أن المسيحية والفلسفة الهيجلية يتفقان اتفاقًا جوهريًا ويقدم كل منهما للآخر تأكيدًا متبادلًا. أما الجناح الرديكالى ـ «اليسار الهيجلى» أو «الهيجليون الشباب»، فقد أخذوا موقفًا معارضًا. فلما كانت الطبيعة تسبق الروح البشرية (العقل) فى النسق الهيجلى من الناحية المنطقية مال اليسار إلى أن ينظروا إلى الإنسان على أنه نتاج للطبيعة، واختلفوا كثيرًا أو قليلًا فى الاتجاه نحو المذهب المادى والإلحاد.

ويرى «ديفيد فرديدريش شتراوس D. F. Strauss (١٨٠٨ ـ ١٨٧٤) فى كتابه الشهير «حياة يسوع» (١٨٣٥)، الذى كان له تأثير فى النفوس فى ذلك الوقت، أنه ليس من الضرورى أن نفترض أن الأحداث المسجلة فى الكتاب المقدس إما أن تكون تاريخًا